اللغة العربية والعطاء الحضاري

أ. د. محمد زرمان و د. سليمان قريري و د. حياة مستاري

مقدمة

حين يستعرض الدارسون تاريخ العربية الطويل منذ أن احتضنت الإسلام و انتشرت في أرجاء العالم يجدونه حافلا بالمفاخر، عامرا بالأمجاد التي تثبت لها صفة العالمية و تشهد لها بالقدرة العجيبة على صنع الحضارة . و أعلى مفاخر هذه اللغة أن الله قد اختارها لتكون لسان الوحي، وكان ذلك أصدق دليل على سمو مقامها وعلو مكانتها، وإشارة حية إلى أنها لغة فريدة من نوعها، من حيث غناها بالمفردات والتراكيب المتنوعة القادرة على استيعاب جميع المعاني، والتعبير عن سائر الخواطر والمكنونات، وتجلية حقائق العلم بأفصح لسان و أعلى بيان.

وقد أهلتها هذه الصفات كلها لأن تفتح للمسلمين مجالا واسعا لينقلوا إليها تراث الحضارات التي سبقتهم أثناء تفاعلهم الثقافي معها، بعد اتساع رقعة الفتوح واستقرار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للدولة الإسلامية ، فهضمت جميع ما عرض لها من تراث الأمم الغابرة ، ونفضت عليه من روحها ، وصبغته بصبغتها ، ثم جعلت من هذه العلوم المترجمة مادة خاما انطلق منها المسلمون لصنع حضارة شامخة تكفلت العربية وحدها بالقيام بأعبائها وحمل تكاليفها، وأصبحت بذلك في وقت من الأوقات هي لسان معارف البشر و ترجمان حضاراتهم ، عندما آوت العلم ونصرته ومهدت له السبل ليتقدم خطوات عملاقة إلى الأمام ، بعدما تعددت. في ظلها. ميادينه وتنوعت، ثم قامت بدور الوسيط الممتاز الذي نقل زبدة المعارف الإنسانية إلى أوروبا التي استندت إليه لتبني نهضتها التي نرى ثمارها الآن.

ونحن نعتقد أن هذا الطور من الضعف الذي تمر به العربية هو مرحلة استثنائية عابرة، تضافرت على تكريسها عدة عوامل داخلية وخارجية ، ومتى وعى أبناؤها واقعهم وأولوها العناية الكافية برزت مرة ثانية بقوة، وكانت رائدة المسلمين في انطلاقتهم الحضارية القادمة.

وتطمح هذه الورقة إلى دراسة اللغة العربية والعطاء العلمي، من خلال البحث أولا في خصائص اللغة العربية ومميزاتها، ثم الوقوف على تجربتها في العطاء العلمي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وتحليل الواقع الذي تعيشه اليوم، ورصد أهم التحديات التي تقف عائقا أمام قدرتها على العطاء المعرفي والعلمي اليوم، والانتهاء باقتراح إستراتيجية شاملة لترقية اللغة العربية، ودفعها للاستجابة لمستجدات الحضارة المعاصرة، والإسهام في التطور المعرفي والتكنولوجي.

تمهيد

كانت اللغة ولا تزال مثار اهتمام العلماء والدارسين على مر العصور لكونها ميزة تفرد بها الإنسان عن باقي المخلوقات التي تساكنه على الأرض، فقد: "شُغِلَ العقل الإنساني منذ تكونه بها وجعلها من أولى اهتماماته، واعتبر معرفة كنهها جزءً من سعيه لمعرفة كنه مواضيع الفلسفة الإنسانية الأولى"١. وقد عرفها ابن جني بأنها: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"٢، بينما عرفها أوتويسبرسن بقوله أن: "جوهر اللغة نشاط إنساني. نشاط من قبل الفرد ليجعل نفسه مفهوما من الآخرين، ونشاط من قبل الآخرين ليفهموا ما يدور في عقل الفرد"٣.

ونظرا لآثارها البالغة في تغيير حياته باستمرار وفتح أبواب العلوم والمعارف له باطراد، فقد ظلت تحظى بالدراسات والأبحاث التي تؤكد قيمتها المتميزة. ويكاد يجمع علماء اللسانيات اليوم على أن اللغة ظاهرة إنسانية تستوعب البشر جميعا، وأنها واقع اجتماعي قائم وقوة إنسانية وإرادية مفكرة ومعبرة في المجتمع، لذلك فهم لا يعبأون بالتفريق بين اللغات وتصنيفها، فكل اللغات سواء في قدرتها على العطاء، لأنها تتكفل بأهم وظيفة لها وهي ضمان التواصل والتفاهم بين البشر،

ومنحهم القدرة على تحصيل المعارف والعلوم ونقل الحضارة والتراث والتاريخ: "فاللغة ليست فردية أو (فردانية)، إنها ظاهرة أعلى من الفرد، فالإنسان (الفرد) لا يبتكر لغة، فإذا ما حاول ذلك فإن عمله هذا يصبح ضربا من ضروب العبث العقيم، إذ لن يجد من يفهم حديثه، ولن يستطيع إلى نشر مخترعه هذا سبيلا"٤-

لذلك كانت اللغة تشكّل على الدوام هوية الجماعة الناطقة بها بكل أبعادها: "بتاريخها وذاكرتها وثقافتها ومعاييرها وتطلعاتها ومنظومة القيم الخاصة بها. وهي ذلك الحيز الذي تحقق فيه الجماعة ذاتها يوميا وتمارس في رحابه وجودها"٥، فلكل كلمة عندها محمول معرفي وتاريخي يختزل علاقة الأفراد ببعضهم بعضا، وعلاقتهم بالجماعة الإنسانية التي ينتمون إليها، ومن هنا اكتسبت اللغة أهميتها القصوى لكونها الأساس المتين الذي يقوم عليه بناء الأمة، والضمان الأكبر لتماسكها الاجتماعي، وكان التفريط فيها، أو التخلي عنها لحساب لغة أخرى مؤشرا على زوال الأمة واندثارها، لذلك قال الفيلسوف الألماني فيخته: "إن اللغة هي الأساس في تكوين الأمة... فاللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كُلًّا متراصًّا خاضعا لقوانين، إنها الرابطة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان"٦.

إن هذا النسق من الرموز والإشارات التي تتيح للبشر التواصل بينهم، وتسهل عليهم سبل التفاهم في شتى ميادين الحياة، يكتسي أبعادا كبرى، من أهمها البعد الاجتماعي، والبعد الفكري، حيث أن نشاط الإنسان العقلي يتجسد في شكل لغوي ويعبر عما يجول بخاطره من أفكار، إذ أن اللغة ليست ناقلا للمشاعر والأحاسيس فقط، بل هي وعاء للفكر ومرآة للعقل، حتى إنه بإمكاننا الحكم على مؤهلات الإنسان العقلية من خلال لغته، ونعبر عن هذه العلاقة الجدلية بقولنا إن اللغة فكر ناطق، والتفكير لغة صامتة . وكلما كان تفاعل الإنسان مع واقعه قويا وعميقا كلما ارتقت لغته وتبلورت واتسعت وتحولت مع الأيام إلى أشكال ثقافية وإنجازات حضارية. فاللغة هي معجزة الإنسان، وهي التي تصنع الحياة، وتبني الحضارة، وتؤسس لمشاريع التقدم والارتقاء، وهي برهان حيوية الأمة وقدرتها على البقاء والتواصل الخلاق مع أجيالها.

أولا: خصائص اللغة العربية

العربية إحدى اللغات السامية وأقدمها نشأة وتاريخا، ومن أكثر اللغات تحدثا ونطقا ضمن المجموعة السامية، وإحدى أكثر اللغات انتشارا في العالم، نشأت وترعرعت ونمت في ربوع الجزيرة العربية، وهي أوسع أخواتها وأدقها في قواعد النحو والصرف، وأوسع أخواتها ثروة في أصول الكلمات والمفردات٧، كما تتميز عنها باحتفاظها الكامل بالأصوات الأصلية الغنية، وعلى الأخص أصوات الحلق وأصوات الصفير المختلفة، مما جعل المستشرقين يشهدون لها بأنها أصفى اللغات السامية وأقربها إلى النبع السامي الأول٨، وشهدت أوج تطورها خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين عندما جسدت الشعر الجاهلي بكل ما يحمل من قوة وجزالة وعمق وإيحاء وغنى في المعاني والألفاظ على الرغم من تعذر العثور على نصوص أو آثار تسجل تاريخ تطورها: " ولم يكن في استطاعة المؤرّخين بيانُ الحال التي كانت عليها اللغة العربيّة في الأدوار التي مرّت بها قبل الإسلام؛ بسبب تعذّر العثور على أمثلة مدوّنة يُرجَع إليها ويُقاس عليها، على أنه مهما يكن من اللغة العربيّة وغموض تاريخها القديم فقد عرفناها عند انبلاج نور الإسلام ناضجة بالغة منتهى الفصاحة والبلاغة في ألفاظها ومعانيها؛ فهي من أغنى لغات العالم، وقد وُضع فيها لكلّ مسمّى أسماء عديدة، وجعل لكلّ فعل فروع ومشتقّات كثيرة"٩.

ثم ارتقت في مدارج الاكتمال والتوسع بعد ظهور الإسلام الذي جعل منها لغة الوحي، وبه بدأت مرحلة جديدة من حياتها حافلة بالمفاخر، عامرة بالأمجاد، استطاعت خلالها أن تكون لسان حضارة إنسانية راقية قادت البشرية لقرون عديدة: "فقد بدأت بكتاب الله مرحلة جديدة في حياتها الخالدة، وكأنما تعاطت في آياته إكسير الحياة، وسر البقاء، واستمدت من كلماته شجاعة المواجهة وروح الثبات"١٠.

ومما لاشك فيه أن الدور الرائد الذي قامت به اللغة العربية في إثراء الرصيد الإنساني يعود إلى جملة من الخصائص التي انفردت بها، وكوّنت مع بعضها بعضا عوامل متشابكة أسعفتها لتكون وعاءً فريدا من حيث استيعاب العلوم وإنتاج المعرفة. ومن أهمها نذكر:

١ــ قدرتها على استيعاب المراد الإلهي:

نعتقد أن من أخص خصائص اللغة العربية نزول القرآن الكريم بها. فقد شكل هذا الحدث العظيم معلما تاريخيا

حاسما غيَّر مجرى حياة هذه اللغة التي حملت تعاليم الدين الخاتم، فأقبل عليها الألوف من البشر الذين اعتنقوا الإسلام يتعلمونها ليتسنى لهم قراءة القرآن، وأداء فروضه، ومعرفة أحكامه. ومنذ ذلك الحين ارتبطت العربية بالقرآن الكريم، وببقائه محفوظا في الصدور والسطور بقيت هي كذلك تستمد منه أسباب القوة وعناصر الكمال، وتستعير من روحه عوامل الحيوية والعطاء المستمر، وخصائص الخلود والثبات والمقاومة والثراء والتميز.

وبفضل هذا الارتباط المتين تجاوزت عوادي الزمن وإكراهات الزمان والمكان، وظلت - على الرغم من المحن المتواصلة - صامدة لا تنحني ولا تموت. إن قدرتها على التعبير عن المراد الإلهي، واستيعابها لمعاني الوحي السماوي بكل ما يحمل من قيم وتشريعات وتوجيهات نفسية وتربوية واجتماعية تتجاوز حدود الزمان والمكان وتستجيب لمطالب الإنسان الحياتية وأشواقه الروحية وحاجاته العقلية قد أهلها لأن تتحول إلى لغة حضارية من الطراز الأول، بما بثَّ فيها القرآن الكريم من أنواع التحديات التي تدفعها إلى النمو المستمر، والتطور المطرد في اقتحام مجالات الحياة والاستجابة لدواعيها بقوة.

وقد نبّه أحد الدارسين إلى الأبعاد العلمية والحضارية التي يكتسيها الاختيار الإلهي للعربية لتكون لسان الوحي، وأكد أن هذا الاختيار له دلالات عديدة: "إنَّ في اختيار اللسان العربي ليكون أداة التوصيل، ووسيلة الإبانة، ووعاء التفكير للرسالة الخاتمة الخالدة التي تنتظم جميع شؤون الحياة، وتستجيب لمشكلاتها قضية ذات أبعاد لغوية، وثقافية، وعلمية، وحضارية؛ حيث لم يعد ينكر اليوم، علاقة التعبير بالتفكير، ودور التعبير في التفكير والإبداع الأدبي والعلمي، والمحاكمات العقلية. لذلك فمجرد اختيار)العربية(لتكون لغة الله سبحانه في مخاطبة البشر في النبوة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية كافة، والتي تحدد مهمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيها، بالبلاغ المبين، يعني امتلاكها هذه الأبعاد جميعاً"١١.

ثم أوماً إلى أن خلود النص الإلهي يستدعي بالضرورة خلود الحرف العربي، وهو ما يعني التجرد عن قيود الزمان والمكان، والقدرة على العطاء والإنتاج العلمي والمعرفي، وللعربية في هذا المجال باع طويل بما عرف عنها من: "سعتها، ومرونتها، وغِنى مفرداتها، وكثرة مترادفاتها، التي تمتلك التعبير عن كل حالة شعورية، ولا يضيق لفظها عن استيعاب أيّ معنى، ولا يضيق سلَّمها الصوتي عن النطق بأيّ حرف، مهما كان معقداً في اللغات الأخرى. فضلاً عن قدرتها على تقديم الأوعية التعبيرية، والاستجابة لكل الظروف والأحوال، التي يكون عليها الناس، والاستجابة للإنتاج الحضاري، في سائر العلوم والفنون، حتى يرث الله الأرض، ومن عليها"١٢.

ومن أهم ما منح القرآن للغة العربية اتساع المدلولات وظهور المصطلحات. فقد: "منح القرآن اللفظ العربي امتداداً في المدلول، عندما عبر بألفاظ كان العرب يعرفونها عن معان جديدة لم يكونوا يعرفونها، فأحدث ثورة لغوية لم تشهدها لغة من لغات البشر على امتداد التاريخ ...إن القرآن حين وسع الدلالة اللفظية، منح ألفاظ اللغة مرونة هائلة وصلاحية باهرة للتعبير عن مختلف المعاني الطارئة في حياة الناس، لقد فك الألفاظ من إسارها وأطلقها من عقالها وقال لها: انطلقي في هذه الدنيا فعبري عن كل ما تصادفين من واقع أو إبداع حضاري، وبذلك اتسعت العربية لكل مستحدث في العلم، أو مستنبط من الفكر "١٣-

كما أكسب القرآن العربية سعة في المعنى، حيث جاء بمعان لم يألف العرب تناولها من قبل: "إذ كانوا قوما حسيين، ولغتهم حسية، فجاء القرآن الكريم وحدث عن النفوس ووصفها، فأحسن وصفها، حلل نفس الضال وعلة ضلاله، ونفس المهتدي وعريق اهتدائه، صوَّر تقلبات القلوب وخلجات النفوس، وما يؤثر في المشاعر، فدعا ذلك المسلمين إلى الاغتراف من منهله العذب، وشاعت بينهم الأقوال في الأمور المعنوية، وسمت اللغة العربية إلى مستوى ما كان يتهيأ لها بغير القرآن الكريم"١٤.

ولا نبالغ إذا قلنا أن نزول القرآن بالعربية هو الذي أعطاها هذا الشباب المتجدد، وحفظ عليها كيانها من عوادي الزمن، ونفخ فيها روح الإبداع حتى غدت من السعة والثراء ما يعز وجوده في لغة أخرى. ومن بركات هذا الارتباط بينها وبين القرآن الكريم أن المسلمين بمجرد إحساسهم - بعد اتساع الفتوحات ودخول الأمم الأعجمية في الإسلام - ببداية غزو اللحن للعربية حتى تسارعوا بعزيمة لا تعرف الكلل إلى جمعها من أفواه أصحابها في مواطنهم الأصلية، وتدوينها وتقعيدها، وبذلوا الغالي والنفيس للإحاطة بخفاياها وأسرارها، واستقائها من منابعها

الصافية١٥ بما يكفل لهم معينا موثوقا يعودون إليه لتفسير كلام الله وحديث نبيه عليه الصلاة والسلام، فكان أن حظيت العربية بما لم تحظَ به لغة أخرى من العناية والرعاية، والتوثيق، ولعل ذلك ما حدا بالمستشرق إرنست رينان إلى القول: يقول رينان: "إن انتشار اللغة العربية يعتبر من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، كما يُعتبر من أصعب الأمور التي استعصى حلّها، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة في البدء، فبدت فجأة على غاية من الكمال، سلسة غاية السلاسة، غنية أي غنى، وإن اللغة العربية ولا جدال قد عمّت أجزاء كبرى من العالم"١٦.

٢ـ تجربتها الرائدة في خدمة الحضارة الإسلامية:

وتأتي بعد ذلك الخاصية الثانية التي تشهد لها بالتفرد والتميز وهي تجربتها الرائدة في حمل أعباء الحضارة العربية الإسلامية التي غطت أجزاءً واسعة من العالم، وامتدت لقرون عديدة استأثرت خلالها بالمعارف والعلوم، وأغنت البشرية بكل طارف وتليد، وفجّرت ينابيع المعرفة وفتحت في العلم فتوحا غراء، وأسعفت الجهابذة والعباقرة وأصحاب المواهب بما زخر به بحرها من المعاني والألفاظ فأبدعوا وبلغوا الغاية في التآليف والابتكارات، وساروا بقطار الإنسانية أشواطا بعيدة، واستطاعت خلالها أن تكون لغة العلم والسياسة والتجارة والعمل والتشريع والفلسفة والمنطق والتصوف والأدب والفن . يقول فرانتز روزنتال: " إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جليا في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد، وكذلك فإن أسلوبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيرا عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف، وبصفتهم مفكرين ومبدعين، قد أتوا بأعمال رائعة في حقلي الرياضيات والفلك وللسبب ذاته نجح العرب في باقي العلوم"١٧.

ومما لا شك فيه أن هذه التجربة التي يقوم التاريخ شاهدا عدلا عليها لا يمكن إنكارها والغض من قيمتها، فهي قائمة بدلائلها وبراهينها في عالم الناس تعضدها شهادات المنصفين من المؤرخين والمستشرقين والدارسين الذين انبهروا بقدرة العربية الخارقة على احتواء العلوم وهضم الثقافات ومواكبة مسيرة التطور الإنسانية بجدارة فاعترفوا لها بهذه المزية. وسجلت لنا كتب التاريخ أن أوروبا ظلت تدرّس في جامعاتها كتب الطب والهندسة والفلك باللغة العربية حتى طوال

إن حمل العربية للوحي الإلهي وخوضها لغمار بناء الحضارة الناتجة عن الدعوة الإسلامية هما اللذان أعطياها كل هذا الزخم وأكسباها تلك الخصائص التي تفردت بها طوال عصور التاريخ حينما تفاعلت بقوة مع متطلبات الحياة الجديدة بكل تحدياتها واستنفرت جميع قواها لتكون في مستوى المسؤوليات العظام التي أنيطت بها.

٣ـ مرونتها وقابليتها للتطور:

لقد أسهب الدارسون والباحثون في عدٍّ الميزات التي تختص بها العربية بما يؤهلها لأن تحتوي ثمرات العلوم التي تطرحها العقول البشرية عبر العصور، وانتهوا إلى أن من أبرز خصائصها غزارة مفرداتها وتنوع دلالات ألفاظها، التي اكتسبتها من كثرة الترادف والاشتراك اللفظي فيها لدرجة أن مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط ألف كتابا سماه "الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف"، وكان ابن خالويه يحفظ للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين١٨، وأحصى المستشرق دوهامر أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربعين لفظا خاصا بالجمل، وذكر الدارسون أن للعسل في العربية ثمانين اسما، وللسيف ألف اسم، وللمطر والريح والنور والظلام والناقة والحجر والماء أسماء تبلغ عشرين في بعضها، وتصل إلى ثلاثمائة في بعضها الآخر١٩

بالإضافة إلى طبيعتها الاشتقاقية التي تتيح للمادة الواحدة أن تعبر عن معان عديدة مرتبطة بمدلول واحد، فمادة (ج ن ن) تدل على الستر مطلقا، ومنها تم اشتقاق كلمة الجنّ لأنهم مخلوقات مستورة عن أعيننا فلا نراهم، وكلمة الجنين لأنه مستور في بطن أمه، وكلمة الجنَّة وهي المكان المخفي عن البشر، وكلمة المجنون وهو الإنسان الذي خفي عقله، وهكذا. ومادة (ر ك ب) تدل في كل أحوالها على الإجهاد والمشقة كيفما اختلف ترتيبها، ومن تراكيبها: ركب الفرس، وركب متن الأخطار، وركبه الدين، ومن تقليباتها كربه الأمر إذا أغمَّه وأحزنه، وكرب الأرض قلبها، وبرك الجمل استناخ٢٠ وغيرها من النماذج التي لا حصر لها في العربية، والتي جمعت منها المعاجم ثروة

لا تضاهى. لذلك ذهب الدارسون إلى أن العربية تتقدم على أخواتها الساميات بالقدرة على استغلال الجذور الثلاثية في توليد صيغ جديدة، وأكدوا أن ذلك من عبقريتها التي تكاد تتفرد بها بين اللغات.

وهذا ما جعل العربية لغة مطواعة لها من خصائص التصريف والتركيب ما يثبت قدرتها على القيام بكل ما تتطلبه الحركة الحضارية من أغراض. وهي غنية بالمفردات ومرنة وقابلة للتطوير التجدد بالإضافة إلى ما تحمله من إرث علمي إنساني كبير: " إن من أهم ما تمتاز به العربية أنها أوسع أخواتها السامية ثروة في أصول الكلمات والمفردات. فهي تشتمل على جميع الأصول التي تشتمل عليها أخواتها السامية أو على معظمها، وتزيد عليها بأصول كثيرة احتفظت بها من اللسان السامي الأول، وأنه تجمع فيها من المفردات في مختلف أنواع الكلمة اسمها وفعلها وحرفها، ومن المترادفات في الأسماء والصفات والأفعال... ما لم يجتمع مثله للغة سامية أخرى، بل ما يندر وجود مثله في لغة من لغات العالم"٢١.

وهذا الغنى في الألفاظ والأصوات والدلالات، والطبيعة المرنة القابلة للاشتقاق والنحت قد تتفرد به لغة عن باقي اللغات الإنسانية ويصبح ميزة من ميزاتها، وهذا لا يطعن في قيمة اللغات الأخرى ولا يبخسها حقها في قدرتها على القيام بوظيفتها في التواصل وبناء الفكر، فمن الحقائق المقررة لدى العلماء أن: "بعض اللغات أقوى من بعضها الآخر، وعناصر القوة في اللغات قد تتمثل في رصيدها الحضاري، كما تتمثل في قدرتها على استيعاب الأحداث المتجددة. وبعض اللغات تمتاز بقدرتها على خلق الصيغ وإنسال الكلمات الجديدة، على حين تعجز لغات أخرى عن فعل ذلك، ومن هنا تتفاوت أقدار اللغات"٢٢-

ثانيا: تجربة اللغة العربية والحضارة الإسلامية

لقد استطاعت العربية بما توفر لها من الخصائص التي ألمحنا إليها سابقا أن تقتحم المجال الحضاري بقوة وأن تحتضن الحركة العلمية النشيطة والثرية التي ولدت عقب انتشار الإسلام في أطراف الأرض وأن تتحمل أعباءها بكل جدارة واقتدار، وأن تصبح بعد زمن وجيز لغة المعرفة العالمية في كل مجالات النشاط الفكري الإنساني.

فقد كشفت الفتوحات للمسلمين كثيرا من المظاهر الحضارية الراقية التي وجدوا عليها الشعوب المفتوحة، ولم يكن في تعاليم الإسلام ما يحول دون التطلع إليها والاستفادة منها، بل إن القرآن الكريم يحث أتباعه على السير في الأرض، ويرشدهم إلى البحث والتنقيب في آثار الأمم السالفة للتعرف تاريخها، والوقوف على أسباب ازدهارها ورقيها، واكتشاف عوامل انهيارها وذهاب ريحها، ليستفيد المسلمون من كل ذلك في مسيرتهم الحضارية، وينتفعوا بما سبقهم إليه غيرهم. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (الروم، ٩).

فكان انفتاح المسلمين على مختلف الثقافات التي سبقتهم واسعا وعميقا: "فهم العرب لأول عهدهم بالإسلام وبإرشاد القرآن أن هناك أمما قد خلت عمرت الأرض ومكَّن الله لها، وكانت أكثر أموالا وأعزُّ نفرا وأثبت آثارا. وامتثلوا أمر القرآن بالسير في الأرض، والنظر في آثار تلك الأمم والاعتبار بمصائرها وعواقبها... فكان هذا الإرشاد القرآني المتكرر٢٣ حفزا إلى التنقيب عن آثار المدنيات القديمة ودراستها، والاطلاع على الصالح النافع منها والأخذ به. وكان من آثار هذا التنبيه القرآني أن تفتحت أذهان المسلمين إلى دراسة هذه المدنيات، واقتباس النافع منها، وكان من فضل القرآن على العالم أنه أبقى بهذا الإرشاد على علوم كادت تندرس، وعلى آثار مدنيات كادت تنطمس"٢٤.

وهكذا وجد العرب أنفسهم أمام تراث ثقافي زاخر ومتنوع، تتابعت الحضارات الشرقية القديمة على تنميته وبلورته، فتفاعل مع تفتحهم الذهني وتسامحهم العقلي، فكان لذلك أثره العميق في الحضارة العربية الإسلامية التي احتضنت الكسب الإنساني بكل ثرائه وتنوعه. يقول كراوثر: " كان من الطبيعي بعد أن اطمأنوا إلى قوتهم العسكرية، ومعتقداتهم الإيمانية أن يتجهوا إلى تشييد المدن الرائعة، ودراسة ثقافة الحضارات التي دانت لهم. وكان العرب المسلمون أمة جديدة بلا تراث علمي سابق، فقرأوا التراث الفكري للقدماء بعقول متفتحة بلا خلفيات تعوقهم، ولذلك وقفت الثقافات الإغريقية واللاتينية والهندية والصينية جميعا بالنسبة لهم على قدم المساواة. وكان من نتائج هذه العقلية المتعطشة للمعرفة عند المسلمين أنهم أصبحوا بالفعل المؤسسين الحقيقيين لمفهوم العالمية

في المعرفة، أو وحدة المعرفة الإنسانية"٢٥.

١ـ مرحلة الأخذ أو الامتصاص:

وبالتأمل في هذه التجربة الحضارية المتميزة نستطيع أن نلمح فيها تفاعلها مع مختلف الحضارات التي سبقتها، ودور اللغة العربية في استيعاب علومها ومعارفها وتحويلها إلى مادة خام انطلق منها المسلمون لتسطير صفحات الإبداع والابتكار في تطبيق رائع للإيمان بنظرية التراكم المعرفي الإنساني عبر الزمن: "وهذه المدنية التي تردد لفظها الألسن، ويصطلح المؤرخون على نسبتها إلى أمم مختلفة، ويميزون بينها بطوابع خاصة، ويشتد المتعصبون في احتكارها لأمة دون أمة... هي في الحقيقة تراث إنساني تسلمه أمة إلى أمة، وتأخذه أمة عن أمة فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما يتهيأ لها من وسائل، وما يؤثر فيها من عوامل"٢٦.

ومن أعرق الحضارات التي تفاعل معها المسلمون ونقلوا تراثها وطوروه الحضارة الفارسية التي تجمعت لديها روافد الحضارة الآشورية والبابلية، وأتاح لها احتكاكها بجيرانها الاستفادة من علوم الهند واليونان، فكان لأهلها باع طويل في التنجيم والهندسة والجغرافيا والطب والتاريخ والآداب والأساطير والقصص. يقول ابن العبري: "أما الفرس فأهل الشرق الشامخ، والعز الباذخ، وأوسط الأمم دارا، وأشرفهم إقليما... ولخواص الفرس عناية بالغة بصناعة الطب، ومعرفة ثاقبة بأحكام النجوم، وكانت لهم أرصاد قديمة"٢٧.

ونظرا لطبيعة الاتصال الذي حصل بين العرب والفرس بعد الفتح الإسلامي، والذي اتسم بالحيوية والعمق والتلاحم القويّ بين الجنسين في ظلال الإسلام، فقد كان التأثير المتبادل بينهما بنفس درجة القوة والاتساع. حيث انفتحت للمسلمين أبواب التراث الفارسي في الطب والفلك والرياضيات والآداب فاجتهدوا في ترجمتها إلى العربية. ومما تجدر الإشارة إليه أن الفرس بعد أن دخلوا في دين الله أفواجا كانوا خير عون للعرب في نقل تراثهم إلى العربية. وقد كان انفتاح العرب على هذا التراث الغني عاملا مهما في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية وإغنائها، سواء في الأساليب أم في المحتوى.

كما تفاعلوا أيضا مع الحضارة الهندية التي تعد نبعا من ينابيع العلوم والمعارف الإنسانية، فأخذوا تراثها الغني في الرياضيات والفلك، والطب، ونقلوه إلى العربية. واتصلوا بالحضارة اليونانية واقتبسوا علومها المختلفة، وامتدت طموحاتهم العلمية إلى الصين التي بلغت في غضون القرنين الأول والثاني الميلاديين: "قمة من قمم التقدم العلمي والثقافي عبر التاريخ، لذلك يحق اعتبار الصين غاية وذروة الحضارات الشرقية القديمة"٢٨، والتي جرى الاتصال بها من خلال التجارة التي نشطت بينها وبين الدولة الإسلامية، وأفضت إلى استقرار جالية عربية كبيرة في الصين، وانتشار الإسلام بين سكانها انتشارا سلميا. وينبئنا التاريخ أنه منذ القرن الثالث الهجري: "وضع التجار العرب والمسلمون أيديهم على أغلب تجارة الصين، حتى أصبحت السفن الصينية ذاتها يقودها ربابنة من العرب، وتركزت التجارة في أيدي عائلات كبيرة ألفت بيوتا تجارية كان لها سطوة وهيبة"٢٩.

وخلال هذه الرحلة المثيرة التي حاول خلالها المسلمون امتصاص التراث الإنساني بكل ألوانه وأطيافه كانت العربية هي الأداة المثلى التي مكّنتهم من ذلك. حيث استنطقها العلماء ولجأوا إليها لتعينهم على حمل هذا العبء الثقيل فاستنفرت قواها، وتفجرت ينابيع عبقريتها، وأظهرت من القدرة على النمو والتوسع ما أدهش العقول. ولم يلبث هذا التراث الزاخر أن تحول إلى اللسان العربي: "قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع. وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة"٣٠.

وكانت ثقة العلماء والمترجمين في كفاءة اللغة العربية كبيرة، وهمتهم في البلوغ بها إلى أعلى درجة من البراعة والقدرة على التعبير عن جميع ما يطلب منها عالية، فكانوا يذللون كل ما يعترضهم من صعوبات إيمانا منهم أن هذه اللغة التي احتوت الوحي الرباني بكل دقائقه لن تعجز عن احتواء العطاء الإنساني، مصداقا لما سجله حافظ إبراهيم في قصيدته:

وَسِعْتُ كِتَـــابَ اللهِ لَفْـظًا وَغَايَـةً
وَمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ
فَكَيْفَ أَضِيقُ اليَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ
وَتَنْسِيـــقِ أَسْمَاءٍ لِمُـــخْتَرَعَاتِ٣١

وتبعا لهذه الحركة العلمية النشيطة أعطت العربية كل كنوزها لمن يبحث عنها: "ولم نسمع مطلقاً أن العلماء العرب والمسلمين الأوائل اصطدموا بعقبة اللغة

عندما ترجموا كتب وعلوم من سبقهم من اليونان والرومان والهنود والفرس وغيرهم. ولم يتبرم أحد منهم من اللغة العربية الفصحى، ولا اتهمها بالعجز أو القصور أو الجمود، بل وجدوا فيها كل عون وتيسير لمهمتهم"٣٢.ثم بدأت المرحلة الثانية.

٢- مرحلة الهضم والإبداع

بعد أن نقل المسلمون تراث الحضارات التي سبقتهم واستوعبوه، وهضموا محتواه، انتقلوا إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة الإبداع والابتكار. حيث جعلوا منه مادة خاما وبدأوا في وضع صرح البناء الحضاري الخاص بهم، وتكفلت العربية خلال هذه المرحلة وحدها بالقيام بأعباء هذه المهمة الحضارية وحمل تكاليفها: "ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها، وفي تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول، ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة، على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان، ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات"٣٣، وأصبحت - طيلة قرون عديدة - لسان معارف البشر، وترجمان حضاراتهم.

ففي الرياضيات أخذ المسلمون ما وجدوا عند الهنود وأضافوا عليه ما وصلهم من الرياضيات اليونانية، ثم بدأ عهد الإبداع الذي كان إحدى دوافعه الكبيرة ما شهدته المجتمعات الإسلامية من تطور مادي استلزم ما يسايره من العلم، بالإضافة إلى عوامل أخرى ومنها: "نظام المواريث الإسلامي المعقد، وتعاظم جحافل الجيوش الجرارة، وتوزيع رواتبها وغنائمها، وحساب نفقاتها، ثم الرخاء الاقتصادي والتراكم المالي الذي تلا تكوين الإمبراطورية الإسلامية، ومشاكل حساب أنظمة الجزية والخراج والضرائب والزكاة، هذا فضلا عن مشاكل عمليات المساحة، وتقسيم الأراضي، وتشييد المدن"٣٤-

وفي علم الفلك، تحمس المسلمون كثيرا لأخذه من غيرهم من الأمم بسبب ما ورد في القرآن الكريم من آيات كثيرة تذكر الشمس والقمر والكواكب والأفلاك والأرض وتعاقب الليل والنهار، وتدعوهم إلى التفكير في هذه المظاهر الكونية، والبحث في أسرارها وخباياها، وإعمال العقل في حركاتها وتأثيراتها، بالإضافة إلى ما أصبحت تتطلبه مختلف العبادات من رصد لحركة القمر قصد معرفة بدايات الأشهر القمرية لضبط مواعيد الصيام والإفطار والحج، ورصد حركة الشمس خلال النهار وعند تتابع الفصول لمعرفة مواقيت الصلاة وتحديد جهة القبلة في البلاد الإسلامية المترامية الأطراف.

وبعد أن تسلموا علم الفلك من الحضارات القديمة، أحدثوا فيه تغييرا هاما حينما فرقوا بينه وبين التنجيم الذي عدوه مجموعة من الخرافات والأوهام التي لا أساس لها من الصحة: "نادى المسلمون بإبطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم، ولعلهم أول من فعل ذلك، ومالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار والعلم... وكانوا كثيري العناية بعلم الأفلاك، يرصدون الأفلاك ويؤلفون الأزياج، ويقيسون العروض، ويراقبون الكواكب السيارة، ويرتحلون في طلب ذلك العلم إلى الهند وفارس، ويتبحرون في كتب الأوائل، ويتممون ما نقص منها ويجمعون بين مذاهبها"٣٥، وبفضل المسلمين أصبح علم الفلك: "علما استقرائيا عمليا، يعتمد على الملاحظة الحسية والمقاييس العلمية، مبنيا على الأرصاد والحسابات الفلكية المستندة على الرياضيات البحتة والتطبيقية"٣٦.

وفي الطب أقبل المسلمون على ترجمة المؤلفات الطبية الهندية، واستقدام الأطباء الهنود للاستفادة من طرق علاجهم ومعرفتهم الدقيقة بالعقاقير وتركيب الأدوية، وكان لهذا التراث الهندي الزاخر وما ضمه المسلمون إليه من علوم فارس واليونان والصين أثره في النهضة الطبية التي شهدتها الحضارة العربية الإسلامية، والتقدم الذي أحرزه هذا العلم في مختلف مجالاته، والذي قام على أكتاف نخبة من الأطباء والصيادلة الأفذاذ، أمثال ابن سينا، وابن البيطار، والإدريسي، والبيروني، والرازي، والأنطاكي، والدينوري، والزهراوي وغيرهم.

وسارت هذه العلوم في رحاب الحضارة العربية الإسلامية في تطور متصاعد، وتفرعت وتشعبت وأحرزت اكتشافات باهرة في كل المجالات، وسجل أصحابها إبداعاتهم واختراعاتهم باللغة العربية التي لا تزال إلى يومنا هذا تشهد لهذه اللغة بعلو الكعب وكمال التكوين. يقول الإبراهيمي مشيرا إلى ما للغة من خصوصية تعين على الإبداع وتقود إلى التطور، وتمد صاحبها بالتميز والاستقلالية: " لولم تكن اللغة العربية لغة مدنية و عمران، ولولم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات و التراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم

اليونان وآداب فارس و الهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغيّر مجرى التاريخ الإسلامي برُمته"٣٧.

٣. مرحلة الخصب والعطاء:

وخلال هذه القرون التي تألقت فيها الحضارة العربية الإسلامية، وبلغت فيها اللغة العربية أوج مجدها ومنتهى اتساعها، وطوت تحت جناحيها أكثر المعارف الإنسانية، وأشعلت في صدور أبنائها جذوة المعرفة فخاضوا ميادين العلوم المختلفة بلا وجل، وحبروا من المؤلفات، وصل إشعاعها إلى أطراف العالم. وتسربت أضواؤها إلى دهاليز القارة الأوروبية التي كانت تعيش في ظلمة دامسة من الجهل والأمية والفقر والظلم والتعصب الديني والاستبداد والإقطاع، عن طريق أبنائها الذين بهرتهم الأندلس برقيها فدخلوها طالبين للعلم، أو الذين جاوروا المسلمين في صقلية، أو أولئك الذين صحبوا الحملات الصليبية ووقفوا بأنفسهم على حقيقة هذه الحضارة فجلسوا منها مجلس التلميذ من معلمه، واغترفوا من أنوارها وحملوها إلى بلدانهم التي بدأت شيئا فشيئا تخرج من نفق الجهل والجمود وتتجه نحو ساحات العلم والحرية.

وبتدفق المؤلفات العربية التي دخلت أوروبا تباعا بدأت تباشير النهضة تطل عليها. وينبئنا التاريخ أن النهضة الأوروبية ظلت تقتات على الإنجازات العلمية العربية لمدة تزيد عن أربعة قرون، قبل أن تهضمها وتتمثلها، وتتهيأ بدورها لدخول دورة حضارية جديدة بعد أن استكملت الحضارة الإسلامية دورتها وآلت إلى السقوط-

كما تؤكد الدراسات أن الحضارة العربية الإسلامية قد سيطرت على المعارف الشرقية والغربية واستثمرتها بوساطة اللغة العربية، وبلغت هذه السيطرة أقصاها في القرن الرابع الهجري، أي العاشر الميلادي، وما يشير إلى أهمية الاستثمار في اللغة العربية أن مؤلفات هؤلاء العلماء ظلت المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر، واعترف عدد كبير من مؤرخي العلم بفضلهم على العلم والإنسانية، حتى قال قائلهم: "لولا أعمال العرب لاضطر علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون" وحتى قال آخر:" إن كثيرا من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا فإذا العرب سبقونا إليها٣٨.

ولعل مؤلفات ابن سينا والفا ا ربي وابن الهيثم وجابر بن حيان والخوارزمي وغيرهم، من أعلام الحضارة العربية والإسلامية، تدل على الإرث الحضاري الرائع الذي قدموه للإنسانية جمعاء، بأسلوبهم العلمي الأخاذ ولغتهم العربية الرصينة التي كتبوا بها الرسائل والموسوعات، وسطّروا بها التجارب والبحوث في الفلك والجبر والهندسة والطب والجيولوجيا والجغرافيا وعلوم الحياة والكيمياء، وغير ذلك من مجالات العلوم المختلفة، كما طوّع هؤلاء العباقرة لغتهم العربية لمصطلحات العلوم الكونية والطبيعية والأحيائية، فأنتجوا حضارة عالمية مهدت للنهضة العلمية الحديثة.

وهذا ما اصطلحنا على تسميته بمرحلة الخصب والعطاء، والذي بلغت فيه الحضارة العربية الإسلامية نضجها التام، وبدأت في التأثير فيمن حولها ببذل ما جادت به قرائح أبنائها من ثمرات العلوم. ومن مؤيداته أن:

١. كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة الذي ألفه عالم الرياضيات ومؤسس علم الجبر الخوارزمي، قد ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وظلَّ يُدَرَّسُ في جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر. ومنه انتقل مصطلح الجبر إلى اللغات الأوروبية، واشْتُقَّ اسم اللوغاريتم من اسم الخوارزمي.

٢. القانون في الطب: لابن سينا، والذي ظل يدرَّ في الجامعات الأوروبية، وخاصة جامعة مونبيلييه الفرنسية حتى مطلع القرن التاسع عشر.كما ترجمت باقي كتبه إلى اللاتينية وظلت مرجعا لطلبة الجامعات في كامل أوروبا لمدة سبعة قرون: " ولا تزال صورة ابن سينا إلى الآن تزين كبرى قاعات كلية الطب بجامعة باريس تقديراً لعلمه واعترافاً بفضله"٣٩.

٣. التصريف لمن عجز عن التأليف: موسوعة طبية في الطب الداخلي والجراحة بصفة خاصة، ألفه أبو القاسم الزهراوي، ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر وأصبح الكتاب المدرسي المعتمَد في كليات الطب في أوروبا كلها حتى مطلع القرن السابع عشر، وأسهم في نشر الجراحة العربية في جميع البلدان الأوربية حيث اشتمل على صور توضيحية لآلات الجراحة التي

ساعدت على وضع حجر الأساس للجراحة في أوروبا.

٤. الحاوي: لأبي بكر الرازي. أضخم موسوعة طبية في علم الأمراض والأدوية ظهرت باللغة العربية حتى الآن، جمع فيه الرازي كل ما يحتاج إليه الأطباء من حفظ الصحة ومداواة الأمراض بالتدبير والأغذية، وظل المرجع الأساسي في تعليم الطب في أوروبا لمدة تزيد على ٤٠٠ عام دون أن يزاحمه كتاب آخر، واعترافاً من الفرنسيين بقيمة هذا الكتاب، أقاموا له نُصبا في القاعة الكبيرة في كليات الطب لديهم٤٠.

والأمثلة من هذا النوع كثيرة لا يأتي عليها العد، وكلها تشهد للعربية بطول الباع في العلوم، وفي وضع المصطلحات العلمية والفنية التي زخرت بها المعاجم، سواء أكان ذلك في مجال العلوم الإنسانية أم الطبيعة أم التجريبية: "إذ كانت العربية هي اللغة العالمية الأولى، لغة العلم والفكر والاقتصاد، وحرر الحرف العربي عشرات اللغات غير المكتوبة وأدخلها عالم التدوين، وتعايشت الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات الشعوب التي ارتبطت معها بالعقيدة، ولم تحاول طمسها أو استلابها، ولكنها تعاملت معها أخذاً وعطاءً فأغنتها واغتنت بها، وقبلت دون تميّز ولا تمييز من استطاع أن يضيف إلى قدرتها، بل إنها كرّمت ذلك وشجّعت عليه"٤١.

ثالثا: التحديات التي تواجه اللغة العربية اليوم

وبعد هذه الرحلة المظفرة التي قطعتها العربية طيلة سبعة قرون، استنام أهلها إلى الدعة والخمول، وهجروا ميدان العلوم والفنون، فسكنت حركة العربية بسكونهم، وضعف عطاؤها بضعفهم، ولم يستفيقوا إلا عند اصطدامهم بالغرب في العصر الحديث، حيث وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام قوة حضارية قد تجاوزتهم بقرون عديدة، ووجدت العربية نفسها في عالم جديد موحش لا تأنس إليه ولا يأنس إليها، فاضطربت أحوالها، وأنكرها أهلها الذين بهرتهم أضواء الحضارة الغربية فتعلقوا بأذيالها طمعا في الظفر بما يتمتع به أهلها من تطور في شتى مجالات الحياة، ولم يدركوا أن اللغة كالكائن الحيّ إذا تفاعل مع البيئة المحيطة به نما واشتد عوده وتكاثر، وإذا فقد العناية والرعاية هزُلَ وتضاءل، ثم اضمحل وهلك، وأن تبعيتهم لغيرهم ستوردهم المهالك وتحكم عليهم بالموت البطيء: "ومن الحقائق العلمية، في ضوء المكتشفات العلمية الجديدة أن اللغة سابقة للفرد، باقية بعده، لا تحيا إلا بتداول الأفراد لها، ولكنها تموت وتنقرض إذا ما أعرض الأفراد عن تداولها٤٢.

لذلك فإننا لا نبالغ إذا قلنا أن العربية اليوم واقعة في عين الإعصار، تكتنفها الصعوبات والتحديات من كل جانب، وقد اجتمع عليها كيد الأعداء وخذلان الأبناء، يرميها كلاهما بتهم العقم والعجز عن فك مغاليق مصطلحات العلوم الحديثة، ووضع أسماء المخترعات العلمية، ويبالغون في ازدرائها فينعتونها بلغة الفقه والشعر، ويشيعون أنها إن صلحت أن تكون لغة فقه وأدب وشعر، فإنها لا تصلح أن تكون لغة علم أو لغة طب أو لغة صناعة أو تجارة، لافتقارها إلى الألفاظ العلمية والتعابير الدقيقة التي تتطلبها العلوم الحديثة وتستلزمها التكنولوجيا المعاصرة، وتعاني في عقر دارها من الحصار الخانق في أبرز القطاعات الحيوية في المجتمع وهي: التعليم والإدارة والإعلام والعامية المنتشرة بشكل فظيع في البيوت والمدارس والشوارع.

أضف إلى ذلك تيار العولمة الذي اجتاح العالم ووضعها بين فكي الرحى: "بين عولمة تمارس عليها ضغوطاً هائلة، تفرض عليها أقصى درجات المرونة وسرعة الاستجابة للمتغيرات العالمية، وبين فصيل من الفكر اللغوي الأصولي المتجمد يعوق تقدمها، تحت دعاوى مضللة ومفاهيم خاطئة للحفاظ على الطهارة اللغوية والأصالة الفكرية، كما يدعي أصحابها، ما يقف حائلاً دون الإبداع، خصوصاً بعد أن فتحت علينا الإنترنت بوابات الفيضان في المفردات والمصطلحات، ولا عاصم اليوم إلا لغة عربية علمية متطورة تكون درعاً لنا لمواجهة الإعصار المعلوماتي الجارف"٤٣.

ومن أخطر التحديات التي تواجه العربية اليوم نذكر:

١. الانهزام النفسي للعرب أمام الحضارة الحديثة:

فقد أحدثت الحضارة الغربية بكل ما تملك من قوة العلم والصناعة وسبق فريد في عالم الفنون، ومظاهر التمدن والرفاهية والنظام والعدل جرحا غائرا في الكبرياء العربية، حملت العرب على ازدراء أنفسهم واحتقارها، والغض من شأن لغتهم التي لم تعد قادرة على ملاحقة السباق العلمي السريع الذي يقفز بالعالم نحو التغيير قفزات مذهلة. وقد حملتهم هذه الهزيمة النفسية التي سكنت في أعماقهم على إهمال لغتهم واستبعادها

في كل المحاولات التي يبذلونها لتحسين واقعهم والخروج من دائرة التخلف، فنتج عن ذلك غفلة خطيرة عن قيمة اللغة في إنجاح مشاريعهم النهضوية، وتوطين التقنية، وتمكينهم من التفاعل الحيّ مع الواقع العالمي الذي يطفح بالنشاط والحركة.

لقد استطاعت عقدة النقص والإحساس العميق بالدونية القابع في أعماق النفس العربية أن يحجب عن العرب الأهمية الحيوية التي تكتسيها اللغة في الصراع المحموم الدائر في العالم لإثبات الذات وافتكاك الاعتراف بالوجود، وإن الإهمال الشنيع الذي تتعرض له اللغة العربية على يد أبنائها، بل والحرب الشرسة التي يشنها بعضهم عليها لإقصائها والحجر عليها، وإغلاق منافذ التطور والانعتاق في وجهها، إنما يدل على جهل مطبق بطبيعة الحياة، وغفلة تامة عن السنن والقوانين التي تتحكم في حركة العالم، والمعطيات التي تصنع النهضة وتقود قطار التنمية.

٢ ـ تدريس العلوم باللغات الأجنبية:

إن استبعاد العربية من مرحلة التعليم الجامعي بالذات واستبدالها باللغات الأجنبية يشكل تحديا من أصعب التحديات التي تواجهها العربية اليوم. فقد تمخض عن هذا الإجراء التعسفي وقوعها في حالة من العزلة التي أوهنت قواها وأورثتها فقرا واضحا في المصطلحات العلمية المعبرة عن مختلف مجالات الحضارة العصرية، ومخترعاتها الصناعية التي تلفظها المخابر ومراكز الدراسة في كل حين، وجعلت جهود المجامع اللغوية العربية تذهب هباءً أدراج الرياح: "إن المجامع اللغوية تقوم بدور حيوي في ملاحقة الجديد من المصطلحات، في مختلف العلوم والفنون، وتضع لكل جديد في الإنجليزية مقابلا عربيا مناسبا. لكن المشكلة أن معاهد العلم لا تلتفت إلى ذلك الجهد المجمعي، لأنها لا تستخدم العربية أساسا. وليس للمجمع سلطة تربوية تفرض على المعاهد والكليات استخدام المصطلحات الجديدة، وبذلك يؤول ذلك الجهد المجمعي إلى التخزين في سجلات الحفظ النهائي"٤٤.

وقد أدى تدريسها باللغات الأجنبية إلى تخلّف وركود وبعد عن الإبداع والنبوغ، لأن الإبداع لا يكون بغير اللغة الأم، والى حرمان اللغة من النمو، أضف إلى ذلك تبعية كثير من الجامعات والمعاهد في وطننا العربي لمعاهد غربية، وإصرار هذه الجامعات والمعاهد الأوروبية على ضرورة سيرنا على أنماط تعليمية، مستوردة بمناهجها ومقرراتها وكتبها وأنظمتها التعليمية، ما أدى إلى بلبلة فكرية كبيرة ٤٥.

ويؤكد زهير أحمد السباعي أن: "المتخصصين الذين ينهمكون في التدريس والبحث والتأليف والنشر بلغات أجنبيَّة، ينعزلون تدريجيًّا عن مجتمعاتهم، حتى يصبحوا غرباء بين أهليهم وعشائرهم على غير قصد أوْ تخطيط منهم مما يؤدي إلى تفكيك روابط المجتمعات وحجبها عن أصحاب الفكر والرأي حتى يتمّ تحلّلها."٤٦. كما انتهت كثير من الدراسات النفسية والتربوية إلى أن الطالب يتجاوب نفسيا وعقليا مع لغته الأم أكثر من غيرها: "يتميز التدريس بالعربية للطالب العربي بأن نقل الأفكار يتم بطريقة مباشرة سلسة دون حاجة لترجمة داخلية تعوق التلقي المباشر واللغة الأم تلقي بظلالها على المعاني فتكسبها ثراء واتساعاً وتلخصها بنفس المتلقي وذوقه فتترك لديه أثراً باقياً وقد لاحظنا أن اللغة التلقائية تجعل الطالب أكثر ثقة بما يقول وأكثر تعبيراً عن مشكلاته وجرأة على المناقشة والحوار"٤٧.

٣ ـ غياب الدعم السياسي:

لا يستطيع أحد أن ينكر ما للقرار السياسي الواعي والحازم من أثر كبير في حماية اللغة وتعزيز استعمالها، ورفدها بعوامل القوة والصمود، وتأهيلها لمواجهة التحديات، ومقاومة أسباب الضعف والعجز. فقد أثبتت التجارب الحديثة بما لا يدع مجالا للشك أن القرار السياسي يقع في مقدمة الإجراءات الضرورية التي تحتاج إليها اللغة لكي تتمكن من الثبات، وتحظى بالاهتمام اللازم الذي يعينها على النمو والتطور واقتحام عالم المعرفة بقوة وثبات.

واللغة العربية اليوم تعاني من الغياب التام للدعم السياسي، فهي مستباحة في كل مجال، عارية من الحماية القانونية والسياسية، لا سند لها في معركتها المصيرية، بينما تجد لغات أخرى في العالم ذات نطاق ضيق جدا في الاستعمال، ولا تملك من العراقة الحضارية ما تملكه العربية، دعما سياسيا غير محدود لرفدها بالوسائل الضرورية لإثبات ذاتها وقيادة أبنائها في معركة تقرير المصير. مما يؤكد أن صانعي القرار السياسي يتحملون

القسط الأكبر من مسؤولية حماية العربية وسن القوانين التي تساعد على تنميتها وتطويرها في مختلف المجالات. ويرى كثير من الدارسين أن أصحاب القرار السياسي في المنطقة العربية يدركون معنى الأمن العسكري والأمني والاقتصادي والمائي والغذائي، لكن القليل منهم من يدركون معنى الأمن اللغوي، الأمر الذي يزيد من معاناة العربية ويعمق مأساتها.

رابعا: نحو استراتيجية شاملة لترقية اللغة العربية وتفعيل دورها الحضاري

إن هذه الحالة المزرية التي تعيشها اللغة العربية بين أهلها والتي تشبه حالة اليتم تتطلب من المخلصين لها والأوفياء لحرفها أن يتكاتفوا ليتداركوا هذا الوضع الخطير بالعكوف على وضع إستراتيجية شاملة لتطوير العربية وسد كل الثغرات التي تسهم في عرقلتها عن أداء وظيفتها الحيوية في المجتمع، أو تهميشها أو إقصائها حتى تصبح قادرة على المواجهة والصمود في وجه التحديات الكبيرة التي تعصف بها، فليس من العدل: "الدفع بالعربية إلى ساحة مواجهة غير متكافئة مع لغات أخرى تسيطر على حلبة الصراع الثقافي والمعرفي والتكنولوجي دون أن نؤهلها لذلك"٤٨ . ومن أبرز بنود هذه الإستراتيجية في اعتقادنا نذكر:

١ـ نشر الوعي بأهمية اللغة في المحافظة على كيان الأمة

وهويتها الحضارية: وتحسيس الشعوب العربية بما لها من دور أساسي في صياغة الشخصية الحضارية، وتحديد السلوك، ونسج الوجدان والمشاعر، وتوجيه الإرادة الإنسانية، والتعبير عن الهوية، وكل ما يكفل للجماعة الإنسانية صاحبة اللغة صفات التميز والفرادة التي تطبعها بطابعها الخاص. يقول مصطفى صادق الرافعي: "إن اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة. كيفما قلّبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها"٤٩. كما يتوجب التركيز على قضية الارتباط العضوي بين اللغة وأهلها، والتأكيد على أن اللغة تحيا بحياة أهلها وتموت بموتهم. والعرب اليوم لا ينتجون المعرفة بل هم مستهلكون ومقلدون، واللغة لا تستطيع أن تنتج شيئا لا ينتجه العقل والفكر. يقول محمد الطاهر بن عاشور: " ترتقي اللغة وتنحط بارتقاء الأمة الناطقة بها، وتتسع بمقدار سعة العقول، فإن اللغة ما وضعت إلا للتعبير عن المراد وتصوير الفكر النفساني، فلا بدع إن أخذت سعة كلما اتسعت الأفكار... ولذا نرى لغات الأمم المتوحشة تكاد تنحصر في عدد معلوم من الألفاظ"٥٠. وقد أسفر ضعف علاقة العرب بلغتهم عن ضعفهم العلمي، أورثهم اضطرابا في الطرح والتفكير، وضعفا واضحا في التعبير، بسبب الخواء المعجمي الناتج عن عدم قدرتهم على التفاعل الحيّ معها.

يقول أحد الدارسين: "تذهب اللسانيات الحديثة اليوم إلى أنّه لا لغة في العالم أقدر بطبيعتها على استيعاب العلوم والآداب والفنون من أية لغة أخرى، وأنّ بوسع أيّ لغة استيعاب هذه الحقول إذا تهيّأ لها المستوى الحضاريّ المطلوب للناطقين بها؛ فإنْ كانت قائمة مفردات اللغة الإنجليزيّة أفضل بطبيعتها من قائمة الإسكيمو، أو أنّها أقدر على استيعاب العلم والتّقنيات الحديثة، فكلّ ما يمكن قوله إنّ الناطقين بالإنجليزية أرفع حضارة وأعلى مستوى اجتماعيًا من الناطقين بلغة الإسكيمو، وأنّ لغة الإسكيمو ستتوسّع تلقائيًا، وتزيد مفرداتها إلى ما تضاهي به الإنجليزيّة عددًا في حالة وصول المستوى الحضاريّ للناطقين بها إلى ذات المستوى الّذي يعيشه الناطقون بالإنجليزيّة حاليًا"٥١. وارتباط اللغة بالفكر بات من البديهيات التي أثبتها العلم وعززتها التجارب التي أكدت أن الإبداع والتميز وليد اللغة الأم التي تحمل تراث المجتمع وتحتفظ بذاكرته الجمعية وترسم الملامح العامة لهويته: "لاشكّ أنّ سرًا يكمن في كلّ لغة من اللغات البشريّة... وإنّنا نزعم أنّ تركيبة كلّ لغة من اللغات ترتبط ببنية عقليّة وفطريّة في الأمّة الّتي أنتجتها تجعلها قادرة على جعل (ميكينزمات) التفكير الإبداعي يسير باتّجاهٍ توافقيّ مع بنية هذه اللغة، من أجل الخلق والإبداع والابتكار"٥٢.

٢ـ تعريب التعليم في جميع المراحل:

إن المطالبة بتعريب التعليم الجامعي الذي يعاني في سائر بلدان الوطن العربي من التبعية اللغوية للأجنبي تأتي استجابة لما تمخضت عنه تجارب الأمم والشعوب في العصر الحاضر، والتي أثبتت جميعا أن النهضة تولد من رحم المجتمع، ومن عمق معاناته، ووعيه الباطن ممزوجة بمقوماته الشخصية وخصائصه القومية ومن أهمها اللغة: "إن التعريب ليس قضية لغة ومفردات

وتراكيب بل هو حاجة حضارية يتم التأكيد من خلاله على هوية الأمة، فالتعريب يعني المشاركة المبدعة للمؤسسات العلمية العربية في بناء الحضارة العالمية، والخروج من حالة التبعية الفكرية والثقافية"٥٣. والتعريب هو الوسيلة الوحيدة لتكوين العقل العلمي الذي يتجسد في شكل مشروع وطني لتوطين التقنية واستنبات المعرفة: "إن تكوين العقل العلمي عملية يجب أن تكون مقصودة لذاتها، مطلوبة بغاياتها، مصوغة كمشروع وطني يشكل جزءً من المشروع الحضاري الكبير"٥٤.

والتعريب هو الذي يعيد للأمة أصالتها ويربطها بجذورها، ويخلصها من التبعية الثقافية المهينة ويفتح لها باب الإبداع المصبوغ بصبغتها هي لا بطابع الآخرين: "إنّ من أبرز البنى اللغوية والثّقافية – بل وحتى الدّينية والحضاريّة – البدء من اليمين، نحن نقرأ من اليمين إلى اليسار في الكتابة، ونفضل اليمين على اليسار، واللغة الإنجليزيّة (لغة العلم) بنيتها من اليسار إلى اليمين، لا يمكنك أنْ تقتطع بنية ثقافيّة من أمّة ضمن نسق مخصوص وتنزله في سياق أمّة أخرى، وتريد لها أنْ تبلغ الإبداع والابتكار والتفرّد؛ وقد فكّكت البنية الأمّ وأعادت بناءها في غير سياقها. هذا لعمري ما يحدث للأمّة الّتي تعتقد – واهمة – أنّها تستطيع أنْ تنزل لغة من غير بنيتها الثّقافيّة في سياق تخلقه منبتًا عن سياقه الأصلي"٥٥. وبذلك تتوثق الصلة بين النخبة المثقفة وباقي أفراد الشعب، وتصبح الجامعات مركزا حيويا لإثراء العربية بالبحوث النافعة والمعاجم التي تغطي حاجتها إلى المصطلحات الجديدة: "إن تعريب التعليم هو خيارنا الوحيد الذي يمضي بنا في مدارج الرقي لأن التعليم والتأليف بغير العربية يحصر العلم في مجموعات محدودة ضيقة النطاق، ويضعف تبادل المعرفة بينها وبين سواد الشعب. والتعليم بها يساعد على نشر المعرفة بين فئات المجتمع لأن العلم يتحدث بلسانها ويقرب إليها المعرفة بوسائل شتى تنهل منها فتكون أكثر علما وقدرة على الاستجابة لمتطلبات العصر."٥٦

٣ـ تحديث تدريس اللغة العربية:

بإعداد البرامج الحديثة المبنية على آخر التطورات التكنولوجية في مجال تعلم اللغات. إن عقم الطرق التعليمية وقدم المناهج في تعليم العربية قد ظهرت منذ أمد بعيد، ونبهت إلى أن الطريقة التقليدية التي يتم بها تعليم العربية في مدارسنا قد أثبتت فشلها على جميع المستويات، وأصبحت عائقا حقيقيا يحول دون تطوير العربية ونموها السليم، ويتسبب في عزوف أبنائها عنها. وهذا الأمر يتطلب إعادة النظر في قواعدها وأساليب تدريسها بهدف تجديدها، وتبسيطها، وتحديثها شكلا ومضمونا لتتمكن من التجاوب مع المستجدات العالمية، وذلك تماشيا مع ما تشهده الدراسات اللغوية في العالم من تطورات على جميع المستويات.

٤. تشجيع حركة الترجمة إلى العربية:

لاستيعاب مستجدات العلوم واحتواء المعرفة المتطورة باستمرار. فقد كانت الترجمة دائما رديفا لحركة النهوض الاجتماعي، وملازما للتقدم المطرد للمجتمعات، مما يكشف عن علاقة طردية واضحة وحاسمة بين النهضة من جهة، والترجمة من جهة أخرى. وهي اليوم الجسر الآمن الذي يصل العربية بالثقافات العالمية ويفتح لها باب التفاعل مع المستجدات العالم من موقع قويٍّ ومؤثر. وسنن التدافع عبر التاريخ تؤكد لنا أنه حيثما تفاعلت ثقافتان وكانت إحداهما قوية والأخرى ضعيفة، فإن الثقافة الأقوى تستوعب الأضعف وتمحوها مع الزمن٥٧.

فالترجمة هي التي تستفز اللغة فتتسع قدراتها وتتهيأ كل مرة لتلقي المزيد من المعارف، وقد أدرك أجدادنا ذلك، فاجتهدوا أيما اجتهاد في نقل العلوم إلى العربية لتكون قوة لهم لا عليهم، وهي الفكرة التي عبر عنها الإبراهيمي أصدق تعبير حين قال: "هذا هو التراث العقلي المشاع الذي لايزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة الذي إما أن تنقله إليك فيكون قوّة فيك، وإما أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك، وقد تفطّن أسلافنا لهذه الدقيقة فنقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه"٥٨.

٥- تأليف لجان من الأخصائيين:

لمراجعة المؤلفات العلمية الموجودة وتهذيبها والعمل على تجانسها بتجاوز الضعيف منها وتوحيد المصطلحات للقضاء على فوضى تعدد المصطلح للمعنى الواحد، وتكليف القادرين من العلماء وتشجيعهم فرادى ومجتمعين على وضع المؤلفات في مختلف الفروع العلمية حتى تتألف لنا ثروة من الأدب العلمي يصح أن يعتمد عليها علماء اللغة في استخلاص المصطلحات والعبارات العلمية في لغتنا الحديثة، وتحديد معانيها ومدلولاتها

بمعاونة العلماء الأخصائيين في ذلك.

٦ـ العناية باللغة في وسائل الإعلام

بالتكوين الجيد للإعلاميين لتجنب الرطانات واللحن باللغة لأثرهم الكبير في ذوق الجمهور. إن أجهزة الإعلام على تنوعها يسميها بعض فقهاء اللغة السلطة الحاكمة لغويا. ذلك أن التأثير الذي تحدثه وسائل الإعلام الورقية والإذاعة الالكترونية في نفس المتلقي هو تأثير بالغ الأهمية. ولذلك فإن أي تشويش دلالي في لغة الرسالة الإعلامية بسبب فسادها أو ضعف بنائها يؤدى ذلك إلى سوء فهم المتلقي بسبب إخلال من جانب المرسِل.

إن وسائل الإعلام متى آمنت بقدسية اللغة وأهميتها للأمة واندمجت في مشروع ترقيتها والحفاظ عليها، فإن أثرها في الواقع سيكون عظيما. وأول هذه الآثار تهذيب اللغة العربية المستَعمَلَة في وسائل الإعلام، والارتقاء بها عن المستوى المتدني الذي هبطت إليه، والالتزام بالحد الأدنى من اللغة الفصيحة البسيطة الجميلة التي تبلغ جميع الأفهام، وتربي الذوق وترتقي بالمشاعر، ثم إشاعتها في الأوساط الاجتماعية من خلال البرامج الترفيهية والمسلسلات والأفلام والحصص التثقيفية وكل ما تبثه وسائل الإعلام، وتكليف المتخصصين من الفنانين واللغويين بهذه المهمات لإخراج أجمل ما في العربية قصد تحبيبها إلى النفوس، وتعزيزها بحملات توعية متواصلة تنبه الناس إلى مكانة اللغة، وارتباطها الوثيق بنهضة الأمة، وتحقيق الاستقلال الحضاري الذي يؤهلها للمنافسة العالمية.

٧ـ تعزيز مواقعها على الشبكة العنكبوتية

إن الحقيقة التي لا نستطيع إنكارها أن العربية تعيش حالة من الاغتراب اللغوي وسط التدفق الهادر للمعرفة الإنسانية في جميع مجالاتها، وأن هذا الوضع يهدد وجودها وبخاصة أمام تأكيد الخبراء أنه سيتم التخلي في المستقبل عن كل اللغات التي لا يمكن ترجمة محتواها إلى كمية من المعلومات من جسم المعرفة المتداولة، وأن مصيرها متوقف على إمكانية ترجمة نتائجها إلى لغة الحاسوب، حيث لا يتعدى المحتوى العربي على الشبكة العنكبوتية ٣٪ من إجمالي المحتوى العالمي، وهو يقتصر غالبا على مجالات محدودة، بعيدة في أحيان كثيرة عن مجالات التنمية الثقافية والاجتماعية٥٩ . لذلك أصبح من الضروري العمل على تأهيل العربية لتكون قادرة على تقبل عمليات البرمجة التي تفتح لها الطريق نحو المشاركة الجادة والفعالة في الحراك العلمي العالمي، فهي بحاجة ماسة إلى مشروع واسع لمعالجتها معالجة آلية وإدخال نظامها اللغوي في الحاسوب لتتمكن من حمل الرصيد المعرفي المتوفر في شبكات الاتصال مما يساعدها تدريجيا على إنتاج المضامين المعرفية، ودخول المنتديات الكبرى.

الخاتمة ونتائج البحث:

وفي خاتمة هذه الدراسة نخلص إلى أن اللغة خاصية إنسانية ذات أبعاد فكرية واجتماعية وحضارية بالغة الأهمية، وأنها ركيزة أساسية من ركائز المجتمعات البشرية، وأداتها الوحيدة لبناء الحضارة، وحماية تراثها وهويتها من الاندثار والفناء. وأن اللغة العربية من أقدم اللغات الإنسانية وأغناها، وقد اجتمعت لها جملة من الخصائص التي حفظت عليها سماتها، وفتحت لها أبواب الديمومة والصمود والثراء، ومنها ارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم، وقدرتها الفذة على استيعاب منتجات الحضارة العربية الإسلامية بكل ما شهدته من إبداعات في شتى فروع المعرفة الإنسانية، وقد أهلها ذلك لأن تكون في مقدمة اللغات العالمية التي قدمت للبشرية تراثا زاخرا وعطاءً علميا غزيرا لا يزال إلى يومنا هذا يمدها بثروات فكرية لا تنفد. وانتهينا إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

١ ـ أن اللغة هي روح الأمة وعنوان هويتها وحافظة كيانها وترجمان أفكارها والجسر الذي يربط ماضيها بحاضرها ويمد لها الطريق نحو مستقبلها، ويوحد بين أبنائها ويحقق بينهم الانسجام العقلي والنفسي الذي يعزز وحدتها.

٢ ـ أن اللغة العربية من أقدم لغات العالم وأكثرها غنى في المفردات والدلالات، وقد تميزت عن أخواتها الساميات بعدة خصائص ضمنت لها الانتشار الواسع والحيوية والاستمرارية عبر العصور.

٣ ـ أن من أخص خصائص العربية قدرتها على حمل كتاب الله واستيعاب المراد الإلهي فيه بكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معان ودلالات إلهية تتجاوز حدود الزمان والمكان مصداقا لقوله تعالى:﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

(الكهف، ١٠٩).

٤. ومن خصائصها كذلك قدرتها على حمل أعباء الحضارة العربية الإسلامية التي امتدت إلى قرون عديدة وزخرت بألوان المعارف والفنون، وشهدت حركة ترجمة وتأليف نشيطة جدا أسهمت فيها شعوب وأجناس مختلفة اتخذت من العربية لغة للتفكير والتعبير والإبداع.

٥. ومن خصائصها أيضا مرونتها وقابليتها للتطور وتميزها بخاصية الاشتقاق والنحت والتوليد والتعريب وما إليها من الآليات التي تعينها على استيعاب كل ما يستجد في دنيا الناس.

٦. أن اللغة العربية في رحلة عطائها الحضاري قد مرت بثلاثة مراحل: مرحلة الأخذ والامتصاص التي انفتحت فيها على الحضارات الإنسانية التي سبقتها انفتاحا واسعا وعميقا يدل على تعطش أبنائها للمعرفة وتقديرهم العظيم للعلم واحترامهم للكسب الإنساني بدون عنصرية ولا إقصاء.

٧. المرحلة الثانية هي مرحلة الهضم والإبداع، وخلالها استوعب المسلمون ذلك التراث الزاخر الذي نقلوه إلى العربية وهضموه جيدا ثم انتقلوا إلى مرحلة الإضافة والابتكار ومواصلة مسيرة المعرفة الإنسانية التي بدأت مع فجر التاريخ، حينما علم الله آدم الأسماء كلها.

٨. المرحلة الثالثة هي مرحلة العطاء التي بدأت بعد نضوج العلوم على أيدي المسلمين واستوائها وبلوغها درجة من التطور يتناسب مع أقصى ما وصلت إليه البشرية آنذاك من التقدم العقلي. حيث بدأت إشعاعات هذا العطاء تتسرب إلى القارة الأوروبية التي كانت قابعة في ظلمات العصور الوسطى وتنير جنباتها إيذانا بميلاد دورة جديدة لحضارة إنسانية أخرى تماشيا مع سنن الله في التداول: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران، ١٤٠)

٩. أن العربية بعد هذا التاريخ الحافل بالأمجاد والإنجازات العلمية الرائعة قد فقدت حضورها في الساحة العالمية بسبب السقوط الحضاري الذي أصاب أهلها، الأمر الذي جعلها في حالة بائسة من الضعف والتقهقر ووضعها في موقف محرج جدا بسبب التحديات التي تواجهها وتهدد وجودها.

١٠. من أبرز التحديات التي تواجه العربية اليوم: الانهزام النفسي لأبنائها تجاه الحضارة الغربية وإهمالهم لها واحتقارهم لأنفسهم، ومنها تدريس العلوم باللغات الأجنبية وحرمانها من اقتحام المجالات الحيوية في المجتمع وإقصائها منها مما تسبب في جمودها وبطء تطورها وعدم قدرتها على مجاراة الواقع العالمي في حركته السريعة، بالإضافة إلى غياب الدعم السياسي الذي يعد ضرورة لا غنى عنها لإلزام المسؤولين في المناصب الحساسة بالإشراف على تطبيق الإجراءات التي تضمن لها الاستعمال العام وتمنع عنها المنافسة الأجنبية.

١١. أن اللغة العربية في عصرنا الراهن بحاجة إلى إستراتيجية شاملة تأخذ في عين الاعتبار وضعيتها الحالية وتدفع بأبنائها إلى البحث عن أنجع السبل لإنقاذها من الأخطار التي تتربص بها، وبخاصة في زمن العولمة التي أصبحت تشكل تهديدا مباشرا لها.

١٢. من أهم بنود هذه الإستراتيجية: نشر الوعي بأهمية اللغة في المحافظة على كيان الأمة، تعريب التعليم في جميع المراحل، تحديث تدريس اللغة العربية، تشجيع حركة الترجمة إلى العربية، العناية باللغة في وسائل الإعلام، تعزيز مواقعها على الشبكة العنكبوتية.

١٣. أن الجهود الفردية في هذا السبيل لا تسمن ولا تغني من جوع، وأن العمل المؤسسي هو الذي يستطيع أن يتجاوز التحديات، وأن ترقية العربية وتطويرها يجب أن يتم في إطار مشروع متكامل يستوعب كل المجالات الحيوية في المجتمع: "إنَّ التنمية اللغوية لا تنفصل عن التنمية الشاملة المستدامة التي تتداخل فيها العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية جميعًا، مما يعني أن هذا الضرب من التنمية هو الإصلاح الشامل عينُه؛ لأنه لا يمكن لك أن تُصلح شأن اللغة قبل إصلاح الشأن العام في المجتمع، ولا يتيسر لك تطوير اللغة وإغناؤها حتى تواكب العصر الذي أنت فيه، ولا تستطيع المحافظة على سلامتها، ما لم تأخذ أوضاعُك، وأحوالُك، وشؤونُك كلها، سبيلَها إلى التطوير الشامل المتكامل"[٦٠].

قائمة المصادر والمراجع

١- أحمد مختار عمر. البحث اللغوي عند العرب . عالم الكتب. القاهرة. ط ٦. ١٩٨٨م.

٢-أسعد داغر. حضارة العرب (تاريخهم، علومهم، آدابهم، أخلاقهم، عاداتهم). مطبعة هندية بالموسكي. القاهرة. جمادى الآخرة ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م.

٣- إبراهيم السامرائي. في شرف العربية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر. الدوحة. ١٩٩٤م.

٤- أنور زيناتي-زيارة جديدة للاستشراق . مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. ٢٠٠٦م

٥- أبو الفرج بن أهرون بن العبري. تاريخ مختصر الدول. طبعة ١٩٥٨م.

٦- انتصار ميلود بن زايد. دور اللغة العربية في تطوير المجتمع. فعاليات المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية حول الاستثمار في اللغة العربية على مستوى المجتمع.

٧- ابن جني. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ط ٣. ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٨- جلال الدين السيوطي. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون. المكتبة العصرية. بيروت.

٩- ديوان حافظ إبراهيم. دار العودة . بيروت.

١٠- زهير أحمد السباعي. تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية. نادي المنطقة الشرقية الأدبي. السعودية. ط١. ١٤١٦هـ /١٩٩٦م

١١- ساطع الحصري. ما هي القومية؟. دار العلم للملايين. بيروت. ط ٢. ١٩٦٣م.

١٢- سعيد أحمد بيومي. أم اللغات، دراسة في خصائص اللغة العربية والنهوض بها. ط ١. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٣- سهل السنوي "ملاحظات في التراث العلمي العربي "وقائع الندوة الثانية لتاريخ العلوم عند العرب، بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي.

١٤- سليمان حسيكي. "الاستثمار في الكتابة العلمية باللغة العربية (الواقع والمرتجَى). المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية. دبي. ١٠/٠٧ مايو ٢٠١٤

١٥- شوقي ضيف. فقه اللغة. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٣. ٢٠٠٤م.

١٦- شوقي جلال محمد. "تقرير المسح الميداني لوضع الترجمة الراهن في الوطن العربي". ضمن كتاب: الترجمة في الوطن العربي، نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ط ١. فبراير ٢٠٠٠م.

١٧- عبد الصبور شاهين. العربية لغة العلوم والتقنية. دار الاعتصام. القاهرة. ط ١. ١٩٨٦م.

١٨- عبد الصبور شاهين. التحديات التي تواجه اللغة العربية. ضمن كتاب: اللغة العربية إلى أين؟. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكو. ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م.

١٩- عبد الكريم خليفة. اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث. منشورات مجمع اللغة العربية الأردني. عمان. ١٩٨٧م.

٢٠- عبد الوارث مبروك سعيد. اللسان العربي (الهوية والأزمة والمخرج). دار النشر للجامعات المصرية. القاهرة.

٢١- عدنان النقاش. ندوة التراث العلمي العربي في العلوم الأساسية. جامعة الفاتح. ليبيا. ١٧/ ٢٠ كانون الأول ١٩٩٠م.

٢٢- علي عبد الدفاع. العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٢. ١٩٨٣م.

٢٣- فرانتز روزنتال. مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة: أنيس فريحة. دار الثقافة. مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. بيروت.

٢٤- كراوثر، ج. قصة العلم. ترجمة: يمنى الخولي. وبدوي عبد الفتاح. المشروع القومي للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ١٩٩٨م.

٢٥- محمد حماسة عبد اللطيف. النحو والدلالة. القاهرة. ١٩٨٦م.

٢٦- محمد السيد علوان. المجتمع وقضايا اللغة. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. ١٩٩٥م

٢٧- محمد أمارة. لغتنا العربية رؤيا وتحديات. المركز العربي للحقوق والسياسات. المجلس التربوي العربي. الناصرة. فلسطين. ٢٠١٣م.

٢٨- محمد أبو زهرة. الخطابة أصولها وتاريخها. دار الفكر العربي. بيروت.

٢٩- محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط ١. ١٩٧٨م.

٣٠- محمد عبد القادر أحمد. إسهامات علماء العرب والمسلمين العلمية. ندوة التراث العلمي العربي في العلوم الأساسية. طرابلس. ليبيا. ديسمبر ١٩٩٠م

٣١- محمد الطاهر بن عاشور. أليس الصبح بقريب. دار سحنون للنشر والتوزيع. تونس. ط ١. ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م
٣٢- محمد فؤاد عبد الباقي. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار الفكر. بيروت. ط ٢. ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٣٣- مصطفى صادق الرافعي. تحت راية القرآن. صحح أصوله: محمد سعيد العريان. دار الكتاب العربي. بيروت. ط ٧. ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
٣٤- ياسين خليل: "اللغة والوجود القومي"، في ندوة اللغة العربية والوعي القومي، مركز د راسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦
٣٥- يمنى طريف الخولي. فلسفة العلم في القرن العشرين. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ديسمبر ٢٠٠٠م.

المجلات والدوريات:

٣٦- مجلة الفيصل. ع ٧٢. ١٩٨٣م. السعودية
٣٧- مجلة عالم المعرفة. ع ٢٧٦. ٢٠٠١م.
٣٨- مجلة ثقافات. ع ١٣. ٢٠٠٥م.
٣٩- مجلة الأثر. ع ١٧. يناير٢٠١٣م. الجزائر
٤٠- جريدة الوسط . العدد٤٨٥٠ . الجمعة ١٨ ديسمبر ٢٠١٥م الموافق ٠٧ ربيع الأول ١٤٣٧هـ. البحرين

المواقع الإلكترونية

٤١. http://www.barakabits.com/ar/٠٧/٢٠١٤/arabic-books
٤٢. http://www.al-jazirah.com/٢٠١١٠١٠١/٢٠١١/ar٩.htm
٤٣. http://www.alhayat.com/Details/٤٧٧٤٨٩
٤٤. http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=٧٩٨١

الهوامش

١- انتصار ميلود بن زايد. دور اللغة العربية في تطوير المجتمع. فعاليات المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية حول الاستثمار في اللغة العربية على مستوى المجتمع.
٢- ابن جني. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ط ٣. ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م. ج ١. ص ٣٣
٣- محمد حماسة عبد اللطيف. النحو والدلالة. القاهرة. ١٩٨٦م. ص ٣١
٤- محمد السيد علوان. المجتمع وقضايا اللغة. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. ١٩٩٥م. ص ١٢٩
٥- محمد أمارة. لغتنا العربية رؤيا وتحديات. المركز العربي للحقوق والسياسات. المجلس التربوي العربي. الناصرة. فلسطين. ٢٠١٣م. ص ٥
٦- ساطع الحصري. ما هي القومية؟. دار العلم للملايين. بيروت. ط ٢. ١٩٦٣م. ص ٥٩
٧- عبد الوارث مبروك سعيد. اللسان العربي (الهوية والأزمة والمخرج). دار النشر للجامعات المصرية. القاهرة. ص ٢١٩
٨- سعيد أحمد بيومي. أم اللغات، دراسة في خصائص اللغة العربية والنهوض بها. ط ١. ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م-
٩- أسعد داغر. حضارة العرب (تاريخهم، علومهم، آدابهم، أخلاقهم، عاداتهم). مطبعة هندية بالموسكي. القاهرة. جمادى الآخرة ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م. ص ١٢٨ - ١٢٩
١٠- المرجع نفسه. ص ٢٧
١١- إبراهيم السامرائي. في شرف العربية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر. الدوحة. ١٩٩٤م. تقديم: عمر عبيد حسنة. ص ٨
١٢- المرجع نفسه. ص ١٩
١٣- عبد الصبور شاهين. العربية لغة العلوم والتقنية. دار الاعتصام. القاهرة. ط ١. ١٩٨٦م. ص ١٢٨

١٤- محمد أبو زهرة. الخطابة أصولها وتاريخها. دار الفكر العربي. بيروت. ص ٢٦٠
١٥- راجع: أحمد مختار عمر. البحث اللغوي عند العرب . عالم الكتب. القاهرة. ط ٦. ١٩٨٨م. ص ٦٢
١٦- أنور زيناتي-زيارة جديدة للاستشراق . مكتبة الأنجلو المصرية.٢٠٠٦ ، ص ١٢٦
١٧- فرانتز روزنتال. مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة: أنيس فريحة. دار الثقافة. مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. بيروت. ص ١٥
١٨- جلال الدين السيوطي. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون. المكتبة العصرية. بيروت. ج ١. ص ٣٢٥
١٩- شوقي ضيف. فقه اللغة. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط ٣. ٢٠٠٤م. ص ١٣١
٢٠- المرجع نفسه. ص ١٤٠
٢١- المرجع نفسه. ص ١٢٩
٢٢- عبد الصبور شاهين. العربية لغة التقنية والعلوم. ص ٤٠
٢٣- ورد الأمر بالسير في الأرض في القرآن الكريم في أربعة مواضع: في سورة آل عمران (الآية ١٣٧)، وفي سورة الأنعام (الآية ١١)، وفي سورة يوسف (الآية ١٠٩)، وفي سورة النحل (الآية ٣٦)، وفي سورة الحج (الآية ٤٦)، وفي سورة النمل (الآية ٦٩)، وفي سورة فاطر (الآية ٤٤)، وفي سورة العنكبوت (الآية ٢٠)، وفي سورة الروم (الآية ٩) و(الآية ٤٢)، وفي سورة غافر (الآية ٢١)، وفي سورة محمد (الآية ١٠). راجع: محمد فؤاد عبد الباقي. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار الفكر. بيروت. ط ٢. ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. ص ٣٧٤
٢٤- محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط ١. ١٩٧٨م. ج ١. ص ٢٦٠
٢٥- كراوثر، ج. قصة العلم. ترجمة: يمنى الخولي. وبدوي عبد الفتاح. المشروع القومي للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ١٩٩٨م. ص ٥٧
٢٦- محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. ص ٢٥٨
٢٧- أبو الفرج بن أهرون بن العبري. تاريخ مختصر الدول. طبعة ١٩٥٨م. ص ٢١٨
٢٨- يمنى طريف الخولي. فلسفة العلم في القرن العشرين. سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ديسمبر ٢٠٠٠م. ص ٤٠
٢٩- سمير عطا. "شنج هو رحالة مسلم من الصين". مجلة الفيصل. ع ٧٢. ١٩٨٣م. ص ٧٦
٣٠- محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. ص ٢٦١
٣١- ديوان حافظ إبراهيم . دار العودة. بيروت. د.ت. ج ١. ص ٢٥٣
٣٢- سهل السنوي "ملاحظات في التراث العلمي العربي "وقائع الندوة الثانية لتاريخ العلوم عند العرب، بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربي، ١٩٨٩ ، ص ١
٣٣- محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. ص ٢٥٩
٣٤- يمنى طريف الخولي. فلسفة العلم في القرن العشرين. مرجع سابق. ص ٤٣
٣٥- علي عبد الدفاع. العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٢. ١٩٨٣م. ص ٣٤٧
٣٦- المرجع نفسه. ص ٣٦٣
٣٧- محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. ص ٢٦٠ - ٢٦١
٣٨- عدنان النقاش. ندوة التراث العلمي العربي في العلوم الأساسية. جامعة الفاتح. ليبيا. ١٧/ ٢٠ كانون الأول ١٩٩٠م. ص ٥٩٠
٣٩- لطيفة النحلاوي. هل هناك كتب عربية تدرس في الجامعات الأوروبية.
http://www.barakabits.com/ar/٠٧/٢٠١٤/arabic-books
٤٠- لطيفة النحلاوي. هل هناك كتب عربية تدرس في الجامعات الأوروبية.
http://www.barakabits.com/ar/٠٧/٢٠١٤/arabic-books
٤١- ياسين خليل: "اللغة والوجود القومي"، في ندوة اللغة العربية والوعي القومي، مركز د راسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦ ، ص ٢

٤٢- عبد السلام المسدي. "اللغة العربية والتحديات الجديدة". مجلة ثقافات. ع ١٣. ٢٠٠٥م. ص ٢٨
٤٣- سليمان حسيكي. "الاستثمار في الكتابة العلمية باللغة العربية (الواقع والمرتجَى). المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية. دبي. ١٠/٠٧ مايو ٢٠١٤
٤٤- عبد الصبور شاهين. التحديات التي تواجه اللغة العربية. ضمن كتاب: اللغة العربية إلى أين؟. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة. إيسيسكو. ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م. ص ١٢٦
٤٥- محمد عبد القادر أحمد. إسهامات علماء العرب والمسلمين العلمية. ندوة التراث العلمي العربي في العلوم الأساسية. ص ٦٧
٤٦- زهير أحمد السباعي. تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية. نادي المنطقة الشرقية الأدبي. السعودية. ط ١. ١٤١٦هـ/١٩٩٦م. ص ١٤ ـ ١٥
٤٧- حمد بن محمد آل فريان. تجارب ناجحة في تعليم الطب باللغة العربية.
http://www.al-jazirah.com/٢٠١١٠١٠١/٢٠١١/ar٩.htm
٤٨- علي نبيل. الثقافة العربية وعصر المعلومات. عالم المعرفة. ع ٢٧٦. ٢٠٠١م. ص ٢٧٠
٤٩- مصطفى صادق الرافعي. تحت راية القرآن. صحح أصوله: محمد سعيد العريان. دار الكتاب العربي. بيروت. ط ٧. ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. ص ٤٩
٥٠- محمد الطاهر بن عاشور. أليس الصبح بقريب. دار سحنون للنشر والتوزيع. تونس. ط ١. ١٤٢٧هـ. ٢٠٠٦م. ص ١٨٣
٥١- جريدة الوسط . العدد٤٨٥٠. الجمعة ١٨ ديسمبر ٢٠١٥م الموافق ٠٧ ربيع الأول ١٤٣٧هـ
٥٢- جريدة الوسط . العدد٤٨٥٠. الجمعة ١٨ ديسمبر ٢٠١٥م الموافق ٠٧ ربيع الأول ١٤٣٧هـ. البحرين
٥٣- عبد الكريم خليفة. اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث. منشورات مجمع اللغة العربية الأردني. عمان. ١٩٨٧م. ص ٦
٥٤- إبراهيم بدران. " حول مفاهيم العلم في العقلية العربية". مجلة شؤون تنموية. ع ٤. القدس–ص ٢٣٧
٥٥- جريدة الوسط . العدد٤٨٥٠ . الجمعة ١٨ ديسمبر ٢٠١٥م الموافق ٠٧ ربيع الأول ١٤٣٧هـ. البحرين
٥٦- عبد المجيد سالمي. "إشكالية اللغة في تدريس العلوم". مجلة الأثر. العدد ١٧. جانفي ٢٠١٣. ص ١٤
٥٧- شوقي جلال محمد. "تقرير المسح الميداني لوضع الترجمة الراهن في الوطن العربي". ضمن كتاب: الترجمة في الوطن العربي، نحو إنشاء مؤسسة عربية للترجمة. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ط ١. فبراير ٢٠٠٠م. ص ١٠٥
٥٨- محمد البشير الإبراهيمي. آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. ج ١. ص ٢٦١
٥٩- فؤاد بوعلي. اللغة العربية والإنترنت في ٢٠١٢.
http://www.alhayat.com/Details/٤٧٧٤٨٩
٦٠ عبد الله أحمد جاد الكريم حسن. تدابير مقترحة تسهم في تدعيم منزلة العربية وترقيتها عالميا.
http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=٧٩٨١